ما أعرفه عن فارس الخورى

للأستاذ على الطنطاوى

أقيمت فى ردهة المجمع العلمى العربى فى دمشق ، من نحو عشرين سنة ، حفلة لتكريم حافظ ابراهيم حضرتها أنا وأخى سعيد الأفغانى ، وكنا يومئذ فى مطلع الشباب ، نقصد هذه الحفلات لننتقد الخطباء ، ونبتغى لهم المعايب ، فمن لم نعب فكرته عبنا أسلوبه ، ومن لم ننتقص إنشاءه انتقصنا إلقاءه ، وخطب كثيرون فى الحفلة ، وقال فيها حافظ بيتيه المعروفين :

شكرت جميل صنعكم بدمعى ... ودمع العين مقياس الشعور
لأول مرة قد ذاق جفنى ... على ما ذاقه طعم السرور

ولم يسلم من ألسنتا ... وكان فيمن خطب رجل قصير القامة ، عظيم الهامة (جداً) ... أبيض الشعر ، ألقى قصيدة لا أزال أذكر أن مطلعها ، كان :

ليالى التصابى قد جفانى حبورها ... ولمّتى السوداء أسفر نورها
ومن لى بإنكار الحقيقة بعد ما ... تجلّى على وجهى وفودى نذيرها
تذكرت أيام السرور التى مضت ... فياليت شعرى هل يعود سرورها
لئن لى مع الأصحاب سهم مسدّد ... وحظى من ريم الكناس غريرها
أسفت على عهد الشباب ولم تعد ... تثير فؤادى مقلة وفتورها
وأدنتنى الأيام من هوّة الونى ... فأصبح منى قاب قوس شفيرها
وكادت صروف الدهر تطوى صحائفى ... وهل بعد هذا الطىّ يرجى نشورها

إلى أن ...

وتخلص إلى لقاء حافظ ، وقال إنه جدد له عهد الشباب ... وهى قصيدة طويلة لا أرويها[1] ، وكان صوته قوياً على انخفاض مدوياً على وضوح ، كأن له عشرة أصداء تتكرر معه ، فتحس به يأخذك من أطرافك ، ويأتى عليك من الأقطار الأربعة ، فتسمعه بأذنيك وقلبك وجوارحك ، بل تكاد يدك تلمس فيه (شيئاً) ضخماً ... على صحة فى المخارج ، وضبط فى الأداء ، وقوة فى النبرات ، وثبات فى المحطات ، واعتداد بالنفس عجيب ، تشعر به فى هذا الصوت الذى يكون له هذا الدوىّ كله ، وهو يخرج من فم صاحبه باسترسال واسترخاء ، لا يفتح له شدقه ولا يحرك لسانه ، ولا يمد نفَسه ولا يجهد نفسه ، وأنسانا بهذا الصوت وهذا الإلقاء ، أن ننقد القصيدة ، أو نجد لها العيوب ، وملك به قلوبنا وقلوب الحاضرين ، فصفقنا له حتى احمرت منا الأكفّ .

وقلت لسعيد : من هذا ؟

قال : هذا فارس الخورى .

وكنت قد سمعت باسم (فارس الخورى) قبل ذلك بزمان ، سمعت به مذ كنت تلميذاً فى السنين الأواخر من المدرسة الابتدائية أيام الملك فيصل (١٩١٩) ، وكنا نعرفه علماً من أعلام السياسة ، وركناً فى وزارة المالية ، ولكنى لم أره قبل هذه الحفلة .

ومرت الأيام ، وخرجت من الثانوية ، واشتغلت بالسياسة (كما كان يشتغل لداتى يومئذ) ، وصرت سنة ١٩٣١ ، رئيس اللجنة العليا لطلبة دمشق ، ومحرراً فى الجريدة الوطنية الكبرى جريدة (اليوم) التى كان يقوم عليها الكاتب الوطنى الخطيب الأديب ، الذى علّمنا تقديس الشرف ، وتقدير الرجولة ، عارف النكدى ، وكانت اللجنة تأتمر بأمر الكتلة الوطنية ، التى كان لها (فى تلك الأيام) قيادة الأمة ، وكانت هى وحدها تحمل لواء الجهاد ، والعمل على الاستقلال ، فكنت اتصل بكبار رجالها ، وكنت أحضر بعض مجالسهم ، وهناك عرفت فارس الخورى من قرب ، فرأيت فيه رجلا وديعاً ظريفاً ، حليما واسع الصدر ، ولكنه كان (مع هذا كله) هائلا ، مخيفاً ، تراه أبداً كالجبل الوقور على ظهر الفلاة لا يهزّه شىء ، ولا يغضبه ولا يميل به إلى الحدّة والهياج ، يدخل أعنف المناقشات بوجه طلق ، وأعصاب هادئة ، فيسدّ على خصومه المسالك ، ويقيم السدود ، من المنطق المحكم ، والنكتة الحاضرة والسخرية النادرة ، والعلم الفياض ، والأمثال والحكم والشواهد ، ويرقب اللحظة المناسبة حتى إذا وجدها ضرب الضربة اللاحقة وهو ضاحك ، ثم مدّ يده يصافح الخصم الذى سقط ... لا يرفع صوته ، ولا يثور ولا يعبس ولا يغضب ، ولكنه كذلك لا يفرّ ولا يغلب .

(١) وهى فى الكتاب الذى لم يعمل وفى لشوقى والحافظ ، حتى بالأدب ، مثله : (ذكرى الشاعرين) للأستاذ أحمد عبيد طبع (المكتبة العربية فى دمشق) .

وما رأيته يناقش أحداً إلا شبهته بأستاذ يناقش تلميذاً مدلّلا غبياً ، فأنت تلمس في لهجته ولحظته وبسمته وكلمته ، صبره عليه ، وتملكه منه ، واشفاقه عليه .

***

ثم كنت تلميذه في السنة الأخيرة من كلية الحقوق (١٩٣٢) وكان يدرس علم المالية ، وأصول المحاكمات المدنية ، يلقي درسه إلقاء لا تدري أأنت تعجب وتطرب ، لفصاحة لهجته ، أم لغزارة مادته ، إلقاء غير محتفل به ولا متجمع له ، وكانت له عادة (لازمة) هي أن يأخذ قلماً رصاصياً طويلا ، فيقيمه على قاعدته وهو يسقط وهو يداريه ويعاوده حتى يستقر ، ولا يكاد ، ولا يبصر ذلك ولا يلقي باله إليه ، كأنه يكره أن تبقى يده بلا عمل فهو يشغلها به ، أو كأنه يرى هذا الدرس لا يستحق انتباهه كله ، ولا يملأ هذا الرأس النادر ... فيأخذه على أنه لهو وتسلية ، وكنا نورد عليه في آخر الساعة أسئلة من كل فنّ ومشاكل في كل موضوع فيجيب عنها كلها ، بتحقيق العالم ، أو ببلاغة الأديب ، أو بنكتة الشاعر ، ومن أجوبته الحاضرة ، ونكته السائرة ، أن طالباً (ثقيلا ...) سأله :

— ما فائدة هذه الحروف اللثوية ، ولماذا نقول ثاء ، وظاء ، فنخرج ألسنتنا ، ونضطر إلى هذه الغلاظة ؟

فقال له على الفور ، وقبل أن يتم سؤاله :

— لا فائدة لها أبداً ، وسنتركها ونجدد فنقول (كسّر الله من أمسالك) .

فسكت الثقيل خزيان .

ومن عجائب حلمه ، وسعة صدره ، ووقاره الذي لا يحركه شيء ، أني أقبلت عليه مرة ، بعد الدرس ، وكانت لي عليه جراءة فقلت له أمام الطلاب :

— يا أستاذ . ما هذا القرار السخيف الذي وضعته البلدية ، لتقسيم أرض الدرويشية ؟ أليس من العار أن يصدر عن بلدية دمشق هذا الجهل وهذا الظلم وهذا ...

في عشر مترادفات من هذا النمط ، ساق إليها ترق الشباب فلما انتهيت منها قال لي ، والابتسامة لم تمح عن شفتيه :

— أنا الذي وضع صيغة هذا القرار !

ورحت يشرح لي مزاياه ، ولكني لم أفهم منها شيئاً ، وشعرت من الخجل كأن دلو ماء حار صبّ عليّ ، وقد مرت على ذلك الآن خمس عشرة سنة ، ولا يزال صوته (يدرّي) في أذني ، فأشعر بالخجل من هذا الموقف .

***

وخرجت من الكلية وكنت أراه في الترام ، أو ألمحه في الطريق ، فأجد من إيناسه وسؤاله عني ، وحفاوته بي ، ما يملأ نفسي شكراً ، وهذه مزية من مزاياه ؛ يشعر كل من يلقاه أنه صديقه الأوحد ، وأنه أقرب الناس إليه ، وأنه لا يشتغل إلا بذكره ومعرفة أمره ، والعناية به ، وكنت أزور المجمع العلمي العربي ، وهو من كبار أعضائه ، فأراه أحياناً في مناقشات أدبية أو لغوية ، فإذا هو في مجال العلم والحفظ ، كما كان في مجال الرأي والفكر ، وإذا هو متسلط غلاب في معاولات الأدب واللغة ، كما كان الغلاب التسلط في معاولات السياسة .

ومرت الأيام وصار رئيس مجلس النواب ، فكانت رياسته عجباً من العجب ، وكان الوافدون على دمشق ، لا يريدون إذا رأوا جامع بني أمية ، والربوة وقاسيون ، إلا أن يروه على منصة الرياسة ، ليحدثوا قومهم إذا رجعوا إليهم بجليل ما رأوا وما حضروا كان النواب بين يديه (ولا مؤاخذة يا سادتي النواب) كالتلاميذ بل إن أكثرهم كانوا تلاميذه فعلا ، وكان يصرفهم تصريفاً لا يوصف ولا يثبت على الورق ، وما هم بالذين يصرفون أو يسيرون وإن فيهم لكل باقعة داهية ذرب اللسان حديد الجنان آفة من الآفات ، يطيح بالحكومات ، وينسف الوزارات ، ولكن الحداة تسطو على العصافير ، فإن قابلت النسر الضرحيّ عادت هي عصفوراً ...

وكانت تشتبك الآراء ، وتتداخل المقترحات ، وتشتد المنازعات ، وتثور الحزبيات ، فما هي إلا أن يتكلم ويلخص الموقف ، ويفسر الأقوال ، ويبيّن المقاصد ، حتى يقرب البعيدين ويجمع الشتيتين ، ويصب على جمرة الغضب سطل ماء ، ويستل الرأي الوافق من بين الآراء المشتبكة ، سلّ الشعرة من العجين ، ويعرضه للتصويت ، وكان له في هذا العرض (فنّ) ، ما تنبه له الناس إلا بعد حين ، هو أن في النواب ، من لا يشتغل حتى ولا برفع

اليد ، ولا ينال الأمة منه إلا حضوره الجلسة ، وقبضه الراتب ، وكان يعرف هؤلاء ، فتارة يقول (الموافق يرفع يده) ، فيكونون مع المخالفين ، وتارة يقول (المخالف يرفع يده) فيكونون مع الموافقين يكفّ بذلك من جموح الأكثرية ، ويقوم من اعوجاجها ...

* * *

وغضب مني سعدالله الجابري مرة ، وكان رئيس وزارة ، وهو رجل حلبي لا يعرفني ، فاضطررت أن استشهد ببعض من يعرفني من رجال الكتلة ، فما رأيت أقرب إليّ من فارس بك ، وكان رئيس المجلس ، وقطب رحى السياسة العليا ، وكان كثير الشاغل ضيق الوقت ، ولم يكن بدّ من أن أسأله موعداً ، ولكني كنت في عجلة من أمري ، فذهبت إليه بعد العصر في ساعة ينام فيها أكثر الناس ، فحاول الشرطي أن يردني ، فنهرته ورفعت صوتي فسمعني فخرج إليّ ، مبتسما ، وقال لي :

— هذا الشيخ علي ! ألا تعرفه ؟ إنه دائماً مشاغب !

وأدخلني ، فرأيت المنصب لم يبدل منه شيئاً . إنما يبدل المنصب من يكون أقل منه فيكثر به ، لا من يكون أكبر من مناصب الأرض كلها ، وقديماً قيل : السنبلة المملوءة تنحني ، والفارغة ترفع رأسها .

ودخلت عليه في مكتبه وهو رئيس وزارة ، فما وجدت إلا أستاذنا فارس الخوري ، الأستاذ العالم الأديب الحاضر الجواب ، المسائد النكتة ، وكنت أظن أني سأجد دولة الرئيس فارس بك الخوري الذي لا يكلم إلا بعريضة ، ولا يخاطب إلا بالبروتوكول !

* * *

وفارس الخوري واحد من المشيخة الأجلاء الذين تعتز بهم دمشق ، والذين إن فاخرت انكلترا بتشرشل ، وعمله عمل الشباب وهو في سن الشيوخة ، فإن كل واحد منهم تشرشل لنا ، لا نفتخر بأنه بقي شاباً في عمر الشيوخ ، بل بما جمع إلى ذلك من العلم والفضل ، والثقافة والعرفان ، كالشيخ عبدالمحسن الاسطواني علامة الشام الذي لا يزال موظفاً له همة الشباب ، وهو (حفظه الله) فوق التسعين ، والشيخ كرد علي أبي النهضة الأدبية في الشام ، الذي يعمل اليوم دائباً على المطالعة والبحث والتأليف ، كما كان يعمل منذ خمسين سنة ، عند ما كان محرراً في (المؤيد) ، وفي (المقتطف) من قبله ، وكان يصدر مجلة (المقتبس) من بعده ، فكانت دعامة ضخمة في صرح نهضتنا الأدبية والعلمية ، والشيخ الذي لا يزال شاباً يمشي عشرة أميال ، وهو يقر أنه في الثمانين ، والذي لا يُدرى أذهنه أفتى أم روحه أم جسمه ، الذي يكتب اليوم وقد كان يكتب من نصف قرن : المغربي ، والشيخ القوى الأمين ، الذي كان في أول سنة من هذا القرن الهجري قاضياً في دوما ولا يزال عالماً عاملا نشيطاً كيوم كان في دوما : سليمان الجوخدار وهذا الشيخ (الخوري)[1] الذي شهدت بعبقريته الدنيا ، وأكبرته الأجيال[2] على اختلاف ألوانها وألسنتها وبلدانها ، ورأت فيه (شخصية) ضخمة ، لا توزن بها (شخصيات) هؤلاء الذين ألقت إليهم قوة دولهم مقاليد الأرض ، وحكمتهم في رقاب البشر ، واعترفوا بأنه حمل مع عبء الثمانين[3] حمل رياسة مجلس الأمن فكان خير رئيس له وأقواه . هذا ، وليس وراءه أسطول منه جاءت هيبته ، ولا قنبلة ذرية قامت عليها سطوته ، ما وراءه إلا أمة صغيرة كبّرتها عبقريته ، ودولة ضعيفة قوّتها (شخصيته) ، حتى كان صوتها أعلى الأصوات ، وكلامها أبلغ الكلام ، وخطبته عنها هي نقطة التحول في مجرى الرأي في مجلس الأمن ، كما قال الأستاذ الصاوي في (أخبار اليوم) .

ولقد عجب الذين لا يعرفون فارس الخوري لما سمعوا أنه لم يقرأ خطبته من كتاب ، ولا تلاها من ورقة ، بل ارتجلها ارتجالا ولم يكن في يده إلا بطاقة فيها (خرابيش) بالقلم الرصاص ، رآه النقراشي وهو يخطها فحسب أنها مذكرات له في مسائل عادية من مسائل الحياة ، فلما رأى أنها هي الخطبة العظيمة التي هزت أضخم هيئة دولية في الأرض ، بلغ عجبه من هذا الرجل ، وإعجابه به ، أبعد حدوده ...

أما نحن فلم نعجب ، لأن الشيء من معدنه لا يستغرب ، وهذا الرجل الذي بدأ يتعلم الانكليزية قبل أن يولد أكثر أعضاء الوفد المصري في مجلس الأمن ، والذي أعطاه الله هذا الذهن العجيب ، فجعله لغوياً أديباً شاعراً حقوقياً مشاركا في كل فروع الثقافة ، وأمدّه بمنطق سديد ، وعقل نادر المثال ، ورزقه ذكاء

(١) وآخرين لم أحصهم

(٢) الجيل : الأمة فالعرب رجل والترك جيل ، والانكليز جيل ، قبح الله هذا الجيل .

(٣) لا الثمانية والستين .